مظاهر الوسطية في شيخ الإسلام ابن تيمية (دراسة استقرائية تحليلية)

فريد فوزان محي الدين
الجامعة الإسلامية العالمية الإندونيسية
farid.muhyiddin@students.uiii.ac.id

الملخص

يتناول هذا البحث دراسة شخصية شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية (٦٦١–٧٢٨هـ) في ضوء مفهوم الوسطية والاعتدال في الفكر الإسلامي، من خلال تحليل آرائه العقدية والفقهية والمنهجية وغيرها، في سياقها العلمي والتاريخي. وينطلق البحث من إشكالية علمية تتمثل في الجدل الواسع حول فكر ابن تيمية، بين من يراه مجددًا ومصلحًا ملتزمًا بمنهج السلف الصالح، وبين من يتهمه بالتشدد والغلوّ.

واعتمد البحث المنهج الاستقرائي التحليلي، القائم على جمع النصوص ذات الصلة من مؤلفات ابن تيمية، ودراستها دراسة تحليلية مقارنة بالقيم التسع في الوسطية والاعتدال؛ للكشف عن ملامح الوسطية في فكره ومنهجه، وبيان مدى انضباط اجتهاداته بأصول الشريعة ومقاصدها.

وتوصل البحث إلى أن منهج ابن تيمية يقوم على توازن علمي دقيق يجمع بين النص والعقل، والثبات في الأصول والمرونة في الفروع، وأن مواقفه واجتهاداته تنطلق من أصول علمية راسخة لا من نزعة تشدد أو غلوّ. كما يبيّن البحث أن كثيرًا من الاتهامات الموجهة إليه ترجع إلى قراءات مجتزأة أو غير منصفة لتراثه، أو إلى إسقاطات معاصرة لا تعبّر عن منهجه الكلي في الفكر والاجتهاد والإصلاح.

الكلمات المفتاحية: ابن تيمية، الوسطية، الاعتدال، القيم التسع، الفكر الإسلامي، التجديد والإصلاح، الغلوّ والتشدد، الاجتهاد.

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أمّا بعد؛ فيُعَدّ شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحرّاني (٦٦١–٧٢٨هـ) أحد أبرز علماء الأمة الإسلامية،

وأحد أكثرهم تأثيرا في الفكر الإسلامي عقيدةً ومنهجًا وفقهًا وإصلاحًا. تميّز بتنوع معارفه الشرعية والعقلية، وعمق استنباطه للنصوص، وجرأته في بيان الحق، ودعوته إلى تجديد الدين على أساس الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح.

وقد مثّل ابن تيمية نموذجا فريدا للعالم المجتهد الذي جمع بين العلم والعمل، وبين الأصالة والتجديد، غير أن فكره كان ولا يزال موضع نقاش وجدال بين العلماء والباحثين، إذ رأى فيه بعضهم عالما مجددا ومصلحا مدافعا عن صفاء العقيدة، بينما اتهمه آخرون بالتشدد والغلوّ، بل وصفه بعضهم بالتكفير أو التطرف.

ومن هنا تنبثق إشكالية هذا البحث في التساؤل الرئيس الآتي: إلى أي مدى كان منهج ابن تيمية العلمي والعملي يعكس الوسطية والاعتدال في الفكر الإسلامي؟ وهل يمكن اعتبار آرائه ومواقفه دليلاً على التشدد، أم أنها نابعة من اجتهاد علمي منضبط بأصول الشرع ومقاصده؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية، يعتمد البحث على المنهج الاستقرائي التحليلي القائم على جمع النصوص من مؤلفات ابن تيمية، وتحليلها وفق سياقاتها العلمية والتاريخية، مع المقارنة بالقيم التسع الأساسية في الوسطية والاعتدال؛ للكشف عن معالم الوسطية والاعتدال في فكره ومنهجه.

ويهدف البحث إلى إبراز الجوانب الوسطية في شخصية ابن تيمية ومنهجه العلمي، وإظهار كيف أسهم فكره في تصحيح المفاهيم العقدية، وتقويم الانحرافات الفكرية، دون إفراط أو تفريط، مع المحافظة على روح العدل والإنصاف تجاه الموافق والمخالف.

وأما النتائج المتوقعة من هذا البحث، فهي أن فكر ابن تيمية يقوم على أسس علمية راسخة تجمع بين النص والعقل، وبين الثبات في الأصول والمرونة في الفروع، وأن ما يُنسب إليه من غلوّ أو تشدد إنما هو نتيجة عن قراءة مجتزأة أو غير موضوعية لتراثه العلمي الواسع، أو لا يستند إلى فهم دقيق لتراثه، أو لا إلى قراءة متكاملة لنصوصه ومواقفه، أو أنه غير منصف، فلا تمثل منهجه الكلي في الفكر والاجتهاد والإصلاح.

القيم التسع الأساسية في الوسطية والاعتدال

إن الوسطية والاعتدال في الدين ليس تعليما جديدا، بل هو مبدأ راسخ له أساس متين وأدلة شرعية قوية، وقد مارسها العلماء عبر تاريخ الحضارة الإسلامية، بل إن الوسطية والاعتدال كان سمة بارزة وطابعا مميّزا للتديّن في

تاريخ الإسلام. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾.[1]

وفي البداية سأذكر القيم التسع الأساسية في الوسطية والاعتدال الديني التي ذكرها إدارة شؤون التعليم الإسلامي بوزارة الشؤون الدينية لجمهورية إندونيسيا، وهذه القيم التسع تمثّل الأساس المعياري الجديد بأن يُتّخذ مرجعاً من قِبل المجتمع المسلم في الوسطية، ومن خلال تلك القيم التسع سنوازن ونرى هذه القيم كلها موجودة في شيخ الإسلام ابن تيمية.

والقيم التسع هي: التوسط — والاعتدال — والتسامح — والشورى — والإصلاح — والقدوة — والمواطنة — وعدم العنف — واعتراف العرف.[2]

نبذة مختصرة عن ابن تيمية

هو تقي الدين، أبو العباس، أحمد بن شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم بن مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن أبي محمد عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله ابن تيمية، الحراني، ثم الدمشقي. ولد بحران يوم الإثنين عاشر –وقيل ثاني عشر– شهر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة، وتوفي في ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، ودفن في مقبرة الصوفية بدمشق، ودفن بجانب أخيه شرف الدين عبد الله، رحمهما الله.[3]

ومن أبرز شيوخه: والده عبد الحليم (٦٨٢هـ)، وابن عبد الدائم (٦٦٨هـ)، وشمس الدين بن أبي عمر (٦٨٢هـ)، وفخر الدين علي بن أحمد (٦٩٠هـ)، والمنجأ بن عثمان التنوخي (٦٩٥هـ)، وعفيف الدين أبو محمد عبد الرحيم (٦٨٥هـ)، وابن عبد القوى (٦٩٩هـ)، وغيرهم كثير إذ بلغ عدد شيوخه أكثر من مائة شيخ.

وتخرّج على يديه عددٌ كبير من الأئمة والأعلام، كنجم الدين الطوفي (٧١٦هـ)، والحافظ المزّي (٧٤٢هـ)، وابن عبد الهادي (٧٤٤هـ)، والإمام الذهبي (٧٤٨هـ)، وابن فضل الله العمري (٧٤٩هـ)، وأبو حفص البزار (٧٤٩هـ)، وابن مفلح (٧٦٣هـ)، وابن قاضي الجبل (٧٧١هـ)، والحافظ ابن كثير (٧٧٤هـ)، وغيرهم من أئمة الإسلام الذين ملأ ذكرهم وانتشر علمهم في الأمصار والآفاق.

[1] سورة البقرة: ١٤٣.

[2] *Moderasi Beragama Berdasarkan Nilai-Nilai Islam*, Hal. 7-8.

[3] ابن رجب، *الذيل على طبقات الحنابلة*، ٤/٤٩١-٥٣٢.

وحياته مليئة بالعلم والدعوة والأحداث التي يتعذر ذكرها كلّها في هذا البحث القصير، فمن أراد المزيد فليرجع إلى المصادر والمراجع التي ذكرت سيرته كالعقود الدرية لابن عبد الهادي (٧٤٤هـ)، والبداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ)، والذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (٧٩٥هـ).

ابن تيمية وثناء الأئمة عليه

قال ابن دقيق العيد المالكي ثم الشافعي (٧٠٢هـ): "لما اجتمعت بابن تيمية، رأيت رجلا العلوم كلها بين عينيه، يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريد."[١]

وكان قاضي القضاة ابن الحريري الحنفي (٧٢٨هـ) يقول: "إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام فمن هو؟"[٢]

وقال الحافظ المزي الشافعي (٧٤٢هـ): "ما رأيت مثله، ولا أرى هو مثل نفسه، وما رأيت أحدا أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا أتبع لهما منه."[٣]

وقال ابن عبد الهادي الحنبلي (٧٤٤هـ): "هو الشيخ، الإمام الرباني، إمام الأئمة، ومفتي الأمة، وبحر العلوم، سيد الحفاظ، وفارس المعاني والألفاظ، فريد العصر، وقريع الدهر، شيخ الإسلام، بركة الأنام، وعلامة الزمان، وترجمان القرآن، علم الزهاد، وأوحد العباد، قامع المبتدعين، وآخر المجتهدين."[٤]

وقال الحافظ الذهبي الشافعي (٧٤٨هـ): "ابن تيمية، الشيخ، الإمام، العلامة، الحافظ، الناقد، الفقيه، المجتهد، المفسر، البارع، شيخ الإسلام، علم الزهاد، نادرة العصر، . . . وعني بالحديث ونسخ الأجزاء، ودار على الشيوخ، وخرج وانتقى وبرع في الرجال وعلل الحديث وفقهه، وفي علوم الإسلام، وعلم الكلام، وغير ذلك. وكان من بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين، والزهاد الأفراد، والشجعان الكبار، والكرماء الأجواد، أثنى عليه الموافق والمخالف، وسارت بتصانيفه الركبان لعلها ثلاثمائة مجلد."[٥]

وقال بهاء الدين السبكي الشافعي (٧٧٣هـ): "والله يا فلان ما يبغض ابن تيمية إلا جاهل أو صاحب هوى، فالجاهل لا يدري ما يقول، وصاحب الهوى يصده هواه عن الحق بعد معرفته به."[٦]

---

[١] ابن فضل الله العمري، *مسالك الأبصار في ممالك الأمصار*، ٦٩٨/٥.

[٢] ابن فضل الله العمري، *مسالك الأبصار في ممالك الأمصار*، ٧٠٠/٥.

[٣] ابن عبد الهادي، *العقود الدرية*، ٢٣.

[٤] ابن عبد الهادي، *العقود الدرية*، ١٨.

[٥] شمس الدين الذهبي، *تذكرة الحفاظ*، ١٩٢/٤.

[٦] ابن ناصر الدين الدمشقي، *الرد الوافر*، ٢٤.

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي (٧٩٥هـ): "الإمام، الفقيه، المجتهد، المحدث، الحافظ، المفسر، الأصولي، الزاهد، تقي الدين أبو العباس، شيخ الإسلام وعلم الأعلام، وشهرته تغني عن الإطناب في ذكره، والإسهاب في أمره."[١]

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ): "وشهرة إمامه الشيخ تقي الدين ابن تيمية أشهر من الشمس، وتلقيبه بشيخ الإسلام باق إلى الآن على الألسنة الزكية ويستمر غدا لما كان بالأمس، ولا ينكر ذلك إلا من جهل مقداره وتجنب الإنصاف، فما أكثر غلط من تعاطى ذلك وأكثر عثاره فالله تعالى هو المسئول أن يقينا شرور أنفسنا وحصائد ألسنتنا بمنه وفضله."[٢]

فهذه هي أقوال بعض كبار الأئمة من مختلف المذاهب في الثناء على شيخ الإسلام ابن تيمية، وهذا يدل على أن مكانة ابن تيمية لم تكن محصورة في المذهب الحنبلي فقط، وأن العلماء المنصفين من كل اتجاه أدركوا سعة علمه وعدله وإنصافه، وهو دليل واضح على وسطيته واعتداله، ويعكس قيم الإصلاح والقدوة.

ابن تيمية وعقيدته

يعد شيخ الإسلام ابن تيمية من أهل السنة والجماعة، فكان وسطا بين الجهمية والمشبهة، ووسطا بين القدرية والجبرية، ووسطا بين المرجئة والوعيدية، ووسطا بين الروافض والخوارج.

قال في العقيدة الواسطية: "فإن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك، كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل. بل هم الوسط في فرق الأمة؛ كما أن الأمة هي الوسط في الأمم.

فهم وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية، وبين أهل التمثيل المشبهة. وهم وسط في باب أفعال الله تعالى بين القدرية، والجبرية. وفي باب وعيد الله بين المرجئة، وبين الوعيدية من القدرية وغيرهم. وفي باب الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة، وبين المرجئة والجهمية. وفي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الروافض، وبين الخوارج."[٣]

---

[١] ابن رجب، *الذيل على طبقات الحنابلة*، ٤/٤٩٣.

[٢] ابن حجر العسقلاني، *تقريظ لابن حجر على الرد الوافر*، ١٢.

[٣] ابن تيمية، *العقيدة الواسطية*، ٨١-٨٢.

وهذا متن العقيدة الواسطية، اجتمع الجماعة من الأئمة والقضاة في عصره على الرضا والقبول بالعقيدة المذكورة فيه بعد المناقشة والمناظرة في المجالس الثلاثة المعقودة المعروفة كما حكاه ابن تيمية في مجموع الفتاوى، وابن كثير في البداية والنهاية[1]. وهذا يعكس قيم التوسط والشورى والإصلاح والقدوة.

ابن تيمية واختياراته الفقهية

من أقوى الأدلة على وسطية ابن تيمية وعدله العلمي، أنه لم يكن متعصبا لمذهب معين رغم انتمائه إلى المذهب الحنبلي في الأصل، بل كان مجتهدا يرجع إلى الكتاب والسنة والأدلة الأخرى، ويوازن بين النصوص والمصالح والمقاصد. وأحيانا قد يرجح مذهب الحنفية في مسألة، والمالكية في مسألة، والشافعية في مسألة، والحنابلة في مسألة أخرى. وهذا يعكس قيم التسامح وعدم العنف والاعتدال.

وممن ألف اختياراته الفقهية برهان الدين ابن القيم (٧٦٧هـ)، وقال: "لا نعرف له مسألة خرق فيها الإجماع، ومن ادَّعى ذلك فهو إمَّا جاهل، وإمَّا كاذب، ولكن ما نُسِبَ إليه الانفراد به ينقسم إلى أربعة أقسام:

الأول: ما يُستغرب جدًّا فيُنسب إليه أنَّه خالف الإجماع، لندور القائل به، وخفائه على كثير من الناس، ولحكاية بعض الناس الإجماع على خلافه.

الثاني: ما هو خارج عن مذاهب الأئمة الأربعة، لكن قد قاله بعض الصحابة أو السلف أو التابعين، والخلاف فيه محكيّ.

الثالث: ما هو خارج عن مذهب الإمام أحمد رضي الله عنه الذي اشتهر هو -أعني شيخ الإسلام- بالنسبة إليه، لكن قد قال به غيره من الأئمة وأتباعهم.

الرابع: ما أفتى به واختاره مما هو خلاف المشهور في مذهب أحمد، وإن كان محكيًّا عنه وعن بعض أصحابه."[2]

ابن تيمية والتصوف

كثير من الناس يجهلون جانب التزكية والتصوف عند شيخ الإسلام ابن تيمية، ويظنون أنه كان معاديا للتصوف مطلقا، بينما الحقيقة أنه فرّق بين التصوف الصحيح والتصوف المنحرف، وألّف في ذلك كتبًا ورسائل تبرز وسطيته وإنصافه في هذا المجال. وهذا يعكس قيم التوسط والاعتدال والإصلاح.

---

[1] ابن كثير، *البداية والنهاية*، ١٨/٥٤.

[2] ابن القيم، *اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية للبرهان ابن القيم*، ١٢٢.

فابن تيمية كتب عددا من الكتب والرسائل التي تناول فيها موضوع السلوك، والإخلاص، والزهد، وتهذيب النفس، ومن أبرزها: العبودية، والاستقامة، والكلم الطيب، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بل الجزء الحادي عشر من مجموع فتاواه سمي بكتاب التصوف.

قال ابن تيمية: "ولأجل ما وقع في كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه، تنازع الناس في طريقهم؛ فطائفة ذمت الصوفية والتصوف. وقالوا: إنهم مبتدعون خارجون عن السنة ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام. وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء وكلا طرفي هذه الأمور ذميم.

والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب، ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه."[١]

ابن تيمية والعرف

شيخ الإسلام ابن تيمية من أبرز العلماء الذين اعتبروا العرف مصدراً معتبراً من مصادر الفهم والفتوى، وسأشير إلى بعض كلامه في الآتي:

قال ابن تيمية: "فإذا لم يكن له حد في الشرع ولا في اللغة كان المرجع فيه إلى عرف الناس وعاداتهم." ثم قال: "أن تصرفات العباد من الأقوال والأفعال نوعان: عبادات يصلح بها دينهم وعادات يحتاجون إليها في دنياهم، فباستقراء أصول الشريعة نعلم أن العبادات التي أوجبها الله أو أحبها لا يثبت الأمر بها إلا بالشرع. وأما العادات فهي ما اعتاده الناس في دنياهم مما يحتاجون إليه والأصل فيه عدم الحظر فلا يحظر منه إلا ما حظره الله سبحانه وتعالى."[٢]

وقال في موضوع آخر: "الأسماء التي علق الله بها الأحكام في الكتاب والسنة، منها ما يعرف حده ومسماه بالشرع فقد بينه الله ورسوله: كاسم الصلاة والزكاة والصيام والحج؛ والإيمان والإسلام؛ والكفر والنفاق. ومنه ما يعرف حده باللغة: كالشمس والقمر والسماء والأرض والبر والبحر. ومنه ما يرجع حده إلى عادة الناس وعرفهم فيتنوع بحسب عادتهم: كاسم البيع والنكاح والقبض والدرهم والدينار، ونحو ذلك من الأسماء التي لم يحدها الشارع

---

[١] ابن تيمية، مجموع *الفتاوى*، ١١/١٦-١٧.

[٢] ابن تيمية، مجموع *الفتاوى*، ٢٩/١٦-١٧.

بحد، ولا لها حد واحد يشترك فيه جميع أهل اللغة بل يختلف قدره وصفته باختلاف عادات الناس . . . وبهذا يحصل التفقه في الكتاب والسنة."[1]

فمن خلال كلامه السابق يتضح بجلاء أن ابن تيمية من العلماء الذين اعتبروا العُرف مصدرا معتبرا في فهم الأحكام الشرعية وفي تنزيلها على الواقع، ويمكن القول أيضا أنه وسطي متوازن في اعتبار العرف، يجمع بين الانضباط بالنصوص والانفتاح على الواقع، مما يجعل منه نموذجا في الفكر الإسلامي يمثل عن التوازن بين الثبات والتجديد، والعقل والنقل، والنص والعرف، في منظومة واحدة متكاملة. وهذا يعكس قيم التسامح وعدم العنف واعتراف العرف.

ابن تيمية مع مخالفيه

إن العدل والإنصاف والتوسط مع المخالف والثناء عليه بما فيه من الخير من أعظم سمات الصادق المخلص، سليم القلب، الباحث عن الحق، ويظهر جليا لكل من قرأ لشيخ الإسلام ابن تيمية اتصافه بمبدأ العدل والإنصاف حتى مع المخالف، والثناء على ما فيه من خير.

ومما يؤكد على تسامحه وتوسطه وإنصافه مع مخالفيه، ما قص به تلميذه ابن القيم (٧٥١هـ) حيث قال: "وما رأيت أحدا قط أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية –قدس الله روحه– وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه، وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم.

وجئت يوما مبشرا له بموت أكبر أعدائه، وأشدهم عداوة وأذى له، فنهرني وتنكر لي واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه، ونحو هذا من الكلام، فسروا به ودعوا له، وعظموا هذه الحال منه، فرحمه الله ورضي عنه."[2]

وأيضا كان قاضي المالكية ابن مخلوف المالكي اعترف بحسن خلق ابن تيمية، حيث قال: "ما رأينا مثل ابن تيمية، حرَّضنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا."[3]

[1] ابن تيمية، *مجموع الفتاوى*، ١٩/٢٣٥-٢٣٦.

[2] ابن القيم، *مدارج السالكين*، ٢/٣٢٨-٣٢٩.

[3] ابن كثير، *البداية والنهاية*، ١٨/٩٥.

من خلال ما سبق يظهر إنصاف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وحسن تعامله، وسلامة قلبه، وكرم أخلاقه، وطيب فعاله، مع من ناصبه العداوة في دينه، وتسبب في سجنه وأذاه. وهذا يعكس قيم الاعتدال والتسامح وعدم العنف والقدوة والإصلاح.

ابن تيمية وكتابه "رفع الملام عن أئمة الأعلام"

من المعروف أن ابن تيمية قد ألف رسالة سماها برفع الملام عن أئمة الأعلام، وبين فيها ما يجب على كل مسلم من موالاة المسلمين، وخاصة العلماء الذين هم قدوة السلف الصالح وخلفاء الرسل. فذكر رحمه الله أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة يتعمد مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم في شيء من سنته، وأنه لا يسوغ لمسلم أن يطغى في واحد منهم، أو ينقص من قدره، وأنهم جميعا متفقون اتفاقا يقينيا على وجوب اتباع ما صح من النصوص وسلم من المعارضة، وأنه لا يجوز تقديم قول أحدهم على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد بسط الأسباب التي دعت المجتهد إلى عدم الأخذ بالنص، والتمس له العذر.

وهذه الرسالة على صغر حجمها تدل على ورع هذا الإمام، وكمال فقهه في احترام أقوال العلماء السابقين وأئمة المذاهب الأربعة، مما يؤكد على إنصافه وتسامحه ووسطيته، وعدم جعله الخلاف سببًا للتفرق.

قال رحمه الله تعالى: "وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولا عاما يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنته؛ دقيق ولا جليل. فإنهم متفقون اتفاقا يقينيا على وجوب اتباع الرسول ﷺ. وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك، إلا رسول الله ﷺ. ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه، فلا بد له من عذر في تركه."[١]

ابن تيمية والمواطنة

يُعدّ شيخ الإسلام ابن تيمية من أبرز العلماء الذين جمعوا بين العلم والعمل، وبين الفكر والجهاد، وقد تجلت وسطيته في مواقفه العملية دفاعا عن الدين والوطن، ويعكس قيم المواطنة والشورى والإصلاح والقدوة.

ففي سنة ٦٩٩هـ قد تواترت الأخبار بقصد التتار إلى بلاد الشام، وقد خاف الناس من ذلك خوفا شديدا، وعندما جاء التتار بلاد الشام، وقصدوا دمشق بعد ذلك؛ قام ابن تيمية بالاجتماع بأعيان البلد للمسير إلى غازان سلطان التتار لأخذ الأمان منه لأهل دمشق، فاستجاب له غازان وأعطاهم وثيقة أمان، وعلى الرغم من حصول

[١] ابن تيمية، *رفع الملام عن أئمة الأعلام*، ٨-٩.

أهل دمشق على وثيقة الأمان، إلا أن التتار كانوا مستمرين في نهب المدينة، فاقترب جيش التتار وأرسل الأمير سيف الدين قبجق إلى نائب القلعة ليسلمها إلى التتار إلا أنه رفض بتحريض من ابن تيمية.[1]

وأدرك ابن تيمية أن الواجب الشرعي والوطني يقتضي مقاومة هذا العدوان، فهبّ محرضًا الناس على الثبات والجهاد، قال ابن كثير: "وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية يدور كل ليلة فوق الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال، ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط."[2]

لم يكتف ابن تيمية بالتوجيه والإرشاد، بل قام بدور فعّال في تعبئة النفوس، فزار السلطان الناصر محمد بن قلاوون في مصر، وحثه على نصرة الشام والخروج لقتال التتار، كما خرج بنفسه مع الجيش في معركة شَقْحَب سنة ٧٠٢هـ، يشجع المقاتلين ويذكّرهم بفضل الجهاد ووعد الله بالنصر.

وكان موقفه هذا مثالا على توازن العالم العامل الذي لا ينعزل عن قضايا أمته، بل يشارك في صنع مصيرها، ومن أراد المزيد عن ذلك فليرجع إلى ما قص به ابن كثير في كتابه البداية والنهاية.

الخاتمة

إنَّ الإنصاف بين المسلمين، ولا سيما بين طلبة العلم، سببٌ عظيم في صفاء القلوب وزيادة المودّة وترسيخ الألفة والتعاون، وإذا فُقِدَ الإنصاف نشأت الفرقة ودبّ الخلاف وامتلأت القلوب بالغلّ والحسد، ومن أبرز أسباب قلّة الإنصاف ضعف المعرفة وقصور الاطلاع؛ فمن جهل شيئًا عاداه. وقد مضى علماء السلف والخلف على منهج العدل مع الموافق والمخالف، وأن خطأ العالم أو طالب العلم مع حرصه واجتهاده لا يسوغ ذمّه أو إساءة الظنّ به.

وخلاصة القول، أن شيخ الإسلام ابن تيمية وسطي معتدل متوازن بين العلم والعمل، والثبات والتجديد، والعقل والنقل، والنص والعرف، وأن ما يُنسب إليه من غلوّ أو تطرف إنما هو نتيجة عن قراءة مجتزأة أو غير موضوعية لتراثه العلمي الواسع، أو لا يستند إلى فهم دقيق لتراثه، أو لا إلى قراءة متكاملة لنصوصه ومواقفه، أو أنه غير منصف.

وفي النهاية أقول ما قال به الإمام ابن كثير رحمه الله (٧٧٤هـ) بعد ذكر حياة شيخه ابن تيمية في قوله: "وبالجملة كان من كبار العلماء، وممن يصيب ويخطئ، ولكن خطؤه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحر لجي، وخطؤه أيضا

---

[1] ابن كثير، *البداية والنهاية*، ١٧/٧١٧–٧٢٠.

[2] ابن كثير، *البداية والنهاية*، ١٧/٧٢٧.

مغفور له، وقد صح في البخاري: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر». وقال الإمام مالك بن أنس: كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر."[١]

وهذا ما أستطيع أن أقدم في هذا البحث، إنما هو بحث قصير من طالب مقصّر، إلا أنه قصد به نشر الفائدة، راجيًا أن ينتفع به الجميع، وأن يُسدَّد فيه الخطأ بالتنبيه والتصويب.

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- ابن القيم، *اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية للبرهان ابن القيم* (الرياض: دار عطاءات العلم، ٢٠١٩م / ١٤٤٠هـ)

٣- ابن القيم الجوزية، *مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين* (بيروت: دار الكاتب العربي، ١٩٩٦م / ١٤١٦هـ)

٤- ابن حجر العسقلاني، *تقريظ للحافظ ابن حجر العسقلاني على الرد الوافر لابن ناصر الدين الدمشقي* (الكويت: مكتبة ابن تيمية، ١٩٨٨م / ١٤٠٩هـ)

٥- ابن رجب، *الذيل على طبقات الحنابلة* (الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٥م / ١٤٢٥هـ)

٦- ابن عبد الهادي، *العقود الدرية في مناقب ابن تيمية* (بيروت: دار الكاتب العربي، ١٤٣١هـ)

٧- ابن فضل الله العمري، *مسالك الأبصار في ممالك الأمصار* (أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٤٢٣هـ)

٨- ابن كثير، *البداية والنهاية* (القاهرة: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٩٧م / ١٤١٧هـ)

٩- ابن كثير، *البداية والنهاية* (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٤٨-١٣٥٨هـ)

١٠- ابن ناصر الدين الدمشقي، *الرد الوافر* (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٩٣هـ)

١١- تقي الدين ابن تيمية، *العقيدة الواسطية* (الرياض: أضواء السلف، ١٩٩٩م / ١٤٢٠هـ)

١٢- تقي الدين ابن تيمية، *رفع الملام عن أئمة الأعلام* (الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٩٨٣م / ١٤٠٣هـ)

[١] ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤/١٣٩، ط. السعادة.

١٣- تقي الدين ابن تيمية، *مجوع الفتاوى* (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ٢٠٠٤م / ١٤٢٥هـ)

١٤- شمس الدين الذهبي، *تذكرة الحفاظ* (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م / ١٤١٩هـ)

١٥- Abdul Azis, A. Khoirul Anam, *Moderasi Beragama Berlandaskan Nilai-nilai Islam*, (Jakarta: Direktorat Jenderal Pendidikan Islam Kementrian Agama RI, 2021)